

# منهج الإسلام في صناعة الحضارة

١) معالم حضارة الإسلام

٢) حضارة الإسلام بين الإنسان والحياة

## ١) معلم حضارة الإسلام

حضارة الإسلام منظومة موضوعية متفردة في أصل المرجعية، ودقة التناول، وطريقة الاتّباع، وسلامة المقاصد، تقوم على الفطرة النّقية؛ لأنها أصل الدين، وتصون العقل؛ لأنّه المُخاطب بالدين، وتحفظ معارف الوحي؛ لأنها لُب الدين، وتحقق تفاعل الإنسان بإحسان مع جملة سُنن الله الشرعية والكونية بما يكفيه، لا بما يُطغيه.

ولذلك نزل الوحي بمنهاج معياري؛ ليكون كل شيء على ما ينبغي أن يكون عليه، وجاء نظام الحياة على غاية الإحكام؛ لتتم الهدایات كلها بقدرها، تصديقاً لقول الله ﷺ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا بِقَدْرٍ الْقمر ٤٩.

ولعل هذا يفسر دعوة الله لنا إلى الأخذ بقوّة الطاعة قبل بناء الحضارة، قال تعالى ﷺ خُذُوا مَا أَتَيْنَتُكُم بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَنَقُّلُونَ البقرة ٦٣ والأعراف ١٧١، ويفسر لنا لماذا مع الأخذ بقوّة الطاعة أمرنا الله بالمداؤمة عليها؛ فقال ﷺ خُذُوا مَا أَتَيْنَتُكُم بِقُوَّةٍ وَأَسْمَعُوا البقرة ٩٣(١) ويفسر لنا ماذا حثّنا الله على الأخذ بالأحسن عند صناعة

---

(١) وللزيادة أرجو مراجعة: الأعراف ١٤٥، مريم ١٢

الخمارة؛ فقال ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَتُلَوَّثُمْ أَيْكُفُ أَحَسْنُ عَمَلاً﴾<sup>(١)</sup>  
 الملك ٢، ويفسر لنا لماذا تكررت مادة (القوة) في القرآن إحدى وأربعين مرة (١) ولماذا جمع الله بين العلم (الإيمان الصحيح) والامتثال  
 (العمل الصالح) ونبيها سبحانه إلى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا أَصْنَلِحَتِ﴾<sup>(٢)</sup> البقرة ٢٥، وكيف تكرر ذلك النص الجلي في القرآن نحو  
 من مائة مرة (٢) ليقرر أن اجتماع الإيمان والعمل واجب شرعاً في حق كل مُكَلَّفٍ، وسييل لبلوغ كمالات الهدية والثواب.

فكان هذه هي معادلة التفوق التي تميز منهاج الإسلام في صناعة حضارة كاملة تقوم على تفاعل الإنسان بإحسان مع سُنن الله الشرعية والكونية؛ لصناعة الحياة وصيانتها، فيزيد صفائده، ويتم ذكاوه، ويمتلئ خيرية، ويتحقق التوازن بين مقاصد الوحي وجديد العصر، فيتصل وعيه بسعيه، وعقله بقلبه، وتصطلح نفسه وفطرته، وتنسجم روحه وبدنه، وتلتقي طموحاته وقدراته، فيتسامى الدافع والواقع، فإن حاد عن تلك المعادلة، فإن مجرد استثمار السنن الكونية مهياً لصناعة حضارة

(١) تفسير وبيان مفردات القرآن د. الحِمْصِي ١٨٤ - ١٨٥

(٢) تفسير وبيان مفردات القرآن د. الحِمْصِي ١٢٩ - ١٣٠

لـكـنـهـاـ مـحـكـومـةـ بـالـزـوـالـ، وـتـأـمـلـ مـعـيـ قولـ اللهـ ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبِّنَا لِيُضْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبِّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعَوَاتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا نَتَّعَانِ سَكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس ٨٨-٨٩) (١)

ولـماـ كـانـتـ مـعـادـلـةـ التـفـوقـ لـاـ تـحـقـقـ إـلـاـ بـصـحةـ اـسـتـهـارـ الزـمـانـ فـيـ المـكـانـ؛ فـقـدـ نـزـلـ قـوـلـ اللهـ ﴿فَأَرَأَلَهُمَا الشَّيْطَنُ عَنْهُمَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانُوا فِيهِ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْنَدٌ وَمَتنَعٌ إِلَيْ حِينٍ﴾ (البقرة ٣٦)، والأعراف ٢٤؛ ليـدلـ عـلـىـ أـنـ هـذـهـ الـأـرـضـ هـيـ محلـ الحـضـارـةـ المـقصـودـةـ منـ الـوـحـيـ (٢)

ولـذـلـكـ كـانـ الـأـعـرـابـ أـقـلـ النـاسـ أـخـذـاـ بـشـروـطـ الـحـضـارـةـ؛ لـأـنـهـمـ لـيـسـواـ أـهـلـ تـوـطـنـ وـقـرـارـ، قـالـ تـعـالـىـ ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا

(١) وـانـظـرـ: الأنـعـامـ ١٢٨ـ، الأـعـرـافـ ٧٤ـ، التـوـبـةـ ٦٩ـ، يـونـسـ ٧٠ـ وـ٨٣ـ، النـحلـ ٢٦ـ، القـصـصـ ٧٦ـ وـ٨٣ـ، الرـوـمـ ٩ـ، الزـمـرـ ٩ـ، الفـجـرـ ٦ـ، ١٤ـ، غـافـرـ ٢١ـ وـ٢٢ـ، الـأـحـقـافـ ٢٠ـ وـ٢٦ـ، الـحـشـرـ ٤ـ وـ٥ـ، الـمـرـسـلـاتـ ٤٦ـ

(٢) ولـلـزيـادةـ أـرـجـوـ مـرـاجـعـةـ: الـبـقـرـةـ ٢٩ـ وـ١٢٦ـ، النـمـلـ ٦١ـ

وَاجْدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾

التوبية ٩٧ (١) وكانت بعثة الأنبياء جمِيعاً في أُممهم وأهليهم وحَواضِرهم

وَقُرَاهُمْ، قال تَعَالَى ﷺ (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ) ﴿٢﴾ فاطر ٢٤ (٢)

وكانَتُ الْخَضَارَاتُ الْكَامِلَةُ آثاراً تَامَّةً لِلْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ

وَالْتَّقْوِيَّةِ وَالْتَّحْرِيَّةِ، وَالْوَعْيِ وَالْكِيَاسَةِ وَالْسِّيَاسَةِ، وَالسُّعْيِ وَالْمَنَاسِطِ

وَالْمَنَافِعِ، وَالْحِرَفِ وَالْمَهَنِ وَالصِّنَاعَاتِ وَالتجَارَةِ مِنْ آدَمَ إِلَى مُحَمَّدَ بْنَ

عَبْدِ اللَّهِ ﷺ، فَهُمُ الْعُقُولُ الْكَامِلَةُ وَالْخَضَارَاتُ الْكَامِلَةُ (٣)

ثُمَّ لَمَّا كَانَتِ الْأَرْضُ مُسْتَقْرِرَةً كُلَّ حَضَارَةٍ، فَإِنَّ الْفَاعِلَ فِي صِنَاعَتِهَا هُوَ

الْإِنْسَانُ، ذَلِكَ الْخَلِيفَةُ الْمَصْوُدُ بِالْجَهْلِ الْإِلَهِيِّ الْأَوَّلُ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٥﴾ البقرة ٣٠؛ ليحقق المَوضِوعِيَّةُ

الْخَضَارَيَّةُ بِعَمَارَةِ الْحَيَاةِ وَفُقُّ هَدَائِيَّاتِ اللَّهِ وَسُنْنِهِ فِي بُلوغِ كُلِّ بَنَاءٍ غَايَتِهِ

عَلَى شَرْطِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَالْأَخْذِ بِالطَّاعَاتِ مَعًا.

(١) وللزيادة أرجو مراجعة: التوبية ٩٨-٩٩ و ١٠١-١٠٢ و ١٢٠، يوسف ١٠٠

(٢) وللزيادة أرجو مراجعة: الأعراف ٨٢، هود ٣٨ و ٤٠ و ٥٢، الحجر ٦٧،

يوسف ١٠٩، الأنبياء ٧٧، النمل ٤٥-٤٦، سباء ٣٤، الشورى ٧، محمد ١٣-١٤

(٣) انظر: الأنبياء ٧٩، طه ١١٤، النمل ٤٤، سباء ١٠-١٣، القمر ١٣-١٥

ولذلك حكم الله بإهلاك كل حضارة تقوم على الأخذ بقوة الأسباب دون الأخذ بقوة الطاعة؛ فقال تعالى ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِنْقَبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عِنْقَبَةُ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْشَّوَائِقَ أَنَّ كَذَّبُوا بِإِيمَانِ اللَّهِ وَكَانُوا يَهْبَطُونَ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ الروم (١٠-٩)

فلم تقم حضارة سوية إلا كان الوحي هاديه، ولا بادت حضارة إلا لأنحرافها عن معارف الوحي وأخلاقه؛ ومن ثم وجوب أن يؤدي كل مخلوق دوره المعد له، امثالاً لقول الله ﴿تَسِعُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسِعُ بِمَدِيرِهِ وَلَكِنْ لَا يَنْفَقُهُنَّ تَسِيِّحُهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء (٤٤)، لا سيما هذا الإنسان، المخصوص بإرادة الاختيار؛ ومن هنا جاء دوره أدق وأوقع وأبعد أثراً من غيره، وهو مدعو دائمًا لإتقان هذا الدور ليليق بقول الله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

(١) وانظر: الأنعام ٦، الأعراف ٣٤، التوبه ٦٩، يونس ٨٨-٨٩، النحل ٢٦،

الزمر ٨، الحشر ٢، غافر ٢١، الأحقاف ٢٦

**خَلِيفَةً** ﴿البقرة، ٣٠﴾، فتتحقق به معنى الخلافة عن الله في الحياة.

ومن هنا كانت الحضارة القائمة على منهاج الحق دائمة بدوام استمساك أهلها بقوة الطاعة، تصدقًا لقوله تعالى ﴿ذَلِكَ يَأْتِيَ اللَّهُ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا نَعْمَمَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يَأْنَسُوهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿الأنفال، ٥٣﴾، وقائمة بقياهم على حماية أنفسهم من جرائر بعضهم؛ عملاً بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿الأنفال، ٢٥﴾؛ لأن أصل الصيانة كامن في دوام الجماعة على تحري المحاب الإلهية وإتيانها، وتحري المساخط الإلهية واجتنابها ليدوم الصلاح وأهله.

وهو ما جرى مثلاً ودرساً وعبرة يوم موقعة أحد ٣ هـ من قول الله ﴿أَوَلَمَّا أَصَبَّتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبَّتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿آل عمران، ١٦٥﴾.

ثم جرى مثلاً ودرساً وعبرة يوم موقعة حنين ٨ هـ من قوله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنَينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

كَثُرَتْ كُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ  
بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَشْتُمُ مُدَبِّرِينَ ﴿٢٥﴾ التوبه (١)

- (١) تفسير الطبرى ٤/١٢٤ و بعدها، ٩/٢١٧ و بعدها، ١٠/٢٤ و ١٠٣،  
تفسير ابن الجوزى ٣/٤١٣، تفسير القرطبي ٤/٢٣٧، ٨/١٠٠،  
تفسير ابن كثير ٢/٣٥٦ و بعدها، آل عمران ١٥٢-١٧١

## ٢) حضارة الإسلام بين الحياة والإنسان

إذا كان من طبائع التحولات الاجتماعية أن تسير ببطء، وكان التقدم الحادث فيها يصنع علم المستقبل، فإن بِرَّ الخَلْف بالسلف سيمتنع الماضي فرصة رعاية الحاضر، ويتحقق الموافقة بين عطاء الأمس الطائع وحاجات اليوم المتجدد، فيضمن صحة الحاضر وسلامة الغد، وهو عَيْنُ مَا نَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى صِنَاعَتِهِ وصِيَانَتِهِ حِينَ أَرْسَى أَوْلَى لَبِنَةً فِي مَعْمارِ الْإِسْلَامِ الْخَضَارِيِّ، فَأَنْشَأَ الْمَكَانَةَ الْمُتَوَازِنَةَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَاةِ، فَبَدَأَتْ

بالوعي الأول للدرس الأول، فقال ﴿فَدَلَّهُمَا بِغُرْفَرٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ

<sup>بَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَتِهِمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا</sup>

<sup>أَلَّمْ أَنْهِكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةَ وَأَقْلَلَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُمَا عَدُوٌّ مُّئِنِّ</sup>

الأعراف ٢٢ (١) فعرف الإنسان الأول أن الشيطان هو عدوه الأول،

فاتصلت عداوته في الوعي المسلم منذ الغراس الأول حين علم النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزوجين دعاء المعاشرة، فقال "بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان،

وَجَنِّبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا" (٢) وحين خوَّفَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشيطان

(١) وانظر: الإسراء ٥٣

(٢) صحيح البخاري ١٤١ و ٣٠٩٨ و ٦٠٢٥ و ٦٩٦١

على ولديهما، فقال " ما من مولود يولد إلا نَخْسَه الشيطان، فَيَسْتَهِل  
صارخاً من نَخْسَه، إِلَّا ابن مريم وأمه " (١)

ثم كان من بديع صنع الله أنْ جعل الحياة منظومة كاملة التحضر؛  
ففطرها على أن تؤدي دورها الذي أعدَّ لها، ووصفها بقوله ﴿تُسَيِّحُ لَهُ  
السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَيِّحُ بِهِ﴾ الإسراء ٤٤،  
ودعا الإنسان إلى تأمل الحياة، فإنْ فعل عرف أنه أمين على منظومة  
طاعة تخشع لربها، وتمثل لإرادته، وأنه مستخلف فيها على شروط  
الأمانة والرعاية، وأنه مكلف بصيانتها والتشبه بها؛ لأنها: .

١) تعرف دين الله، قال النبي ﷺ " إنه ليس شيء بين السماء والأرض  
إِلَّا يعلم أني رسول الله، إِلَّا عاصي الجن والإنس " (٢)

٢) وتطيع الله، قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ  
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُ  
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ  
مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الحج ١٨ .

(١) صحيح مسلم ٢٣٦٦ (٢) المسند أحمد بن حنبل ١٤٣٧٢ ، وقال الهيثمي في  
(جمع الزوائد ومنيع الفوائد ٤ / ٥٤) " رواه أحمد بن حنبل في مسنده ورجاله ثقات "

٣) وتغافر على وحدانية الله، قال تعالى ﴿وَقَالُوا أَنْحَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرُنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُجُ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَنْحِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا أَنِ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ مريم ٩٣-٨٨.

٤) وتسبح الله، قال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء ٤٤.

٥) وتخشع من جلال وحي الله، قال تعالى ﴿لَوْأَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ تَرَأَيْتَهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضَرِّبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ الحشر ٢١.

٦) وتتفطر حجارتها من خشية الله، قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ أَلَّا نَهَرَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْيِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ البقرة ٧٤.

٧) وتصاحب الأنبياء في أذكارهم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَانِيْنَا دَأْوِدَ مِنَّا فَضَلَّا يَنْجَالُ أَوْيَ مَعَهُ وَالظَّيْرُ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ سبا (١٠)

٨) وتجاوب مع الطائعين، قال النبي ﷺ " ما مِنْ مُلَّبٌ يَلْبِي إِلَّا لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شَمَائِلِهِ مِنْ شَجَرٍ وَهَجَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الْأَرْضُ هَذَا هَذَا، يَعْنِي عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شَمَائِلِهِ " (٢)

٩) وتتوَدَّد للطائعين، قال النبي ﷺ " إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرْسِ عَرَبٍ إِلَّا يُؤَذَّنُ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ، يَدْعُو بِدُعَوَتِينِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْنَتِي مَنْ خَوَّلْنَتِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ " (٣)

١٠) وتدلل الطائعين على مواطن الخير، وتحذرهم من مواطن الشر، قال النبي ﷺ " إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدَّيْكَةَ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ فَإِنَّمَا رَأَيْتَ مَلَكًا، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحَمَارِ، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا " (٤) وَقَالَ ﷺ " إِذَا سَمِعْتُمْ نُبَاحَ الْكَلَابِ وَنَهِيقَ الْحَمَارِ

(١) وانظر: سورة ص ١٨ (٢) صحيح ابن حزيمة ٢٤٣٤

(٣) المسند أحمد بن حنبل ٢١٥٣٥، وصححه الألباني في (صحيح وضعيف الجامع الصغير وزياحته ٢٤١٤)

(٤) صحيح البخاري ٣١٢٧

**بالليل، فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْهُنَّ؛ فَإِنَّهُنْ يَرِينَ مَا لَا تَرَوْنَ " (١)**

**١١) وتشهد للطائعين، فقد بشر النبي ﷺ المؤذن فقال " لا يسمع مدى صوت المؤذن حِنْ، ولا إِنْس، ولا شَيْءٌ إِلَّا شَهَدَ لَهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ " (٢)**

**١٢) وتنفعل حِبًا للطائعين، فقد نظر النبي ﷺ إلى جبل أُحُد، ثم قال ﷺ " أُحُد جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ " (٣) وصعد النبي ﷺ جبل أُحُد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف الجبل بهم، فخاطبه ﷺ قائلًا " أُثِبْتُ أُحُدَّ فِي أَعْلَى عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدانَ " (٤) وصعد النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان جبل حراء فرجف بهم، فخاطبه ﷺ قائلًا " أُثِبْتُ حَرَاءَ فِي أَعْلَى نَبِيٍّ، أَوْ صِدِّيقٍ، أَوْ شَهِيدَ " (٥)**

**(١) سنن أبي داود ٥١٠٣، المسند أحمد ١٤٣٢٢ ،**

وصححه الألباني في ( صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته ٦٢٢ )، وكذا في ( صحيح وضعيف سُنَّةَ أَبِي دَاوُدَ ٥١٠٣ )، وفي ( الكلم الطيب لابن تيمية ٢٢١ )، وهذا الحديث عند (أبي يَعْلَى فِي مُسْنَدِهِ ٢٢٢١) هكذا " إذا سمعتم نُباح الكلاب ونهيق الحمير فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَإِنَّهُنْ يَرِينَ مَا لَا تَرَوْنَ " .

**(٢) صحيح البخاري ٥٨٤ و ٣١٢٢ و ٧١٠٩**

**(٣) صحيح البخاري ١٤١١ و ٤١٦٠ (٤) صحيح البخاري ٣٤٧٢**

**(٥) صحيح ابن حِبَّان ٦٩١٦**

١٣) وتقاتل مع الطائعين، فقد ذكر النبي ﷺ أخبار آخر الزمان، فكان مما قال " لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا عبد الله: هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إِلَّا لَرْقَدٌ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ " (١)

١٤) وتدافع عن الطائعين، فعن عائشة أن رسول الله ﷺ حدثنا "أن إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار لم تكن دابة إِلَّا أطfaت النار عنه غير الورغ فإنه كان ينفع عليه" فأمر رسول الله ﷺ بقتله (٢)

١٥) وتفتقد عبادات الطائعين، فتبكي مواضع طاعاتهم إذا ماتوا (٣)

١٦) وتستغفر للعلماء العاملين، قال النبي ﷺ " وإن العالم لَيَسْتَغْفِرُ لِهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحَيْتَانَ فِي الْمَاءِ " (٤)

(١) صحيح مسلم ٢٩٢٢      (٢) صحيح ابن حبان ٥٦٣١

(٣) وانظر: الدخان ٢٩، تفسير الطبرى ١٢٤ / ٢٥ وبعدها،  
تفسير القرطبي ١٤٠ / ١٦، ١٤١ - ١٤٢، تفسير ابن كثير ٤ / ١٤٣

(٤) سنن الترمذى ٢٦٨٢، وصححه الألبانى فى (صحيح وضعيف سنن الترمذى)  
٢٦٨٢)، وقال فى (صحيح الترغيب والترهيب ٧٠) "حسن لغيره".

١٧) وَتُشْفِقُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ "مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا وَهِيَ مُصِيقَةٌ (مُنْصِتَةٌ) يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ حِينَ تَصْبِحُ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنِ السَّاعَةِ، إِلَّا الْجَنُّ وَالإِنْسُ" (١) وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ "وَفِيهِ تَقْوِيمُ السَّاعَةِ، مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ، وَلَا سَمَاءً وَلَا أَرْضًا وَلَا رِيَاحًا وَلَا جَبَالًا وَلَا بَحْرًا إِلَّا وَهُنَّ يُشْفِقُونَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ" (٢)

لَكُنْ هَذِهِ الْحَيَاةُ تَغْضِبُ إِنْ جَرِيَ فِيهَا عَصِيَانٌ، فَقَدْ أُثْرَ عَنْ بَعْضِ الْسَّلْفِ "إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ امْرَأَتِي وَدَابِتِي" (٣) وَلَذِلِكَ عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ نَتَّأْدِبَ مَعَ الْحَيَاةِ وَنَحْبُهَا، فَإِذَا رَأَيْنَا الْمَهَلَّالَ نَبَادِرُهُ الْقَوْلَ تَوْحِيدًا وَتَرْحِيَّاً "رَبِّي وَرَبِّكَ اللَّهُ" (٤) وَإِذَا هَبَّ الْرِّيحُ لَا نَصْنَعُ صَنْيَعًا مَنْ لَعْنَهَا، فَنَهَا النَّبِيُّ ﷺ قَائِلًا "لَا تَلْعُنِ الْرِّيحَ إِنَّهَا مَأْمُورَةٌ" (٥) ثُمَّ عَلَّمَنَا ﷺ طَرِيقَةَ التَّعَامِلِ مَعَ الْرِّيحِ، فَقَالَ "لَا تَسْبِّوا

(١) صحيح ابن حبان ٢٧٧٢ (٢) سنن ابن ماجة ١٠٨٤ ، وحسنه الألباني في

(مشكاة المصابيح ١٣٦٣) و (صحيح وضعيف سنن ابن ماجة ١٠٨٤)

(٣) الجواب الكافي ابن القمي ١٤٣

(٤) سنن الترمذى ٣٤٥١ و قال "هذا حديث حسن غريب" ،

المسند أحمد بن حنبل ١٣٩٧ ، السلسلة الصحيحة الألباني ١٨١٦

(٥) صحيح ابن حبان ٥٧٤٥

الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إِنَّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمِرْت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمِرْت به " (١) وجعل ﷺ للديك نوع تكريم؛ لأنَّه يُذَكِّر الناس بطاعة الله، فقال " لَا تُسْبِّوا الديك فإنَّه يدعو إلى الصلاة " (٢) وأوصى ﷺ بالدواب الأربع، فقال عبد الله بن عباس " إنَّ النَّبِيَّ نَهَى عن قتل أربعة: الهدَدُ وَالصُّرَدُ وَالنَّمَلَةُ وَالنَّحْلَةُ " (٣)

فَأَمَّا النَّمَلُ وَالنَّحْلُ فَمُكَرَّرٌ مَّا نَبَاتَ بِاسْمِي سُورَتَيْنِ قُرْآنِيَّتِيْنِ، وَفِي النَّمَلِ  
نَوْعٌ كَبِيرٌ الْأَرْجُلُ لَا يَضُرُّ، وَهُوَ النَّهَىٰ عَنْ قَتْلِهِ (٤) وَفِي النَّحْلِ شَفَاءٌ  
لِلنَّاسِ وَدُعْوَةٌ لِلتَّفَكُّرِ، قَالَ تَعَالَى ﷺ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَأَسْلُكِي شُبُّلَ

---

(١) سنن الترمذى ٢٢٥٢ وقال " هذا حديث حسن صحيح "، وللحديث شواهد في: سنن النسائي ١٠٧٦٩، المسند أحمد بن حنبل ٢١١٧٦،  
المُسْتَدْرَكُ الحاكم ٣٠٧٥ صحيح ابن حبّان ٥٧٣١ (٢) صحيح ابن حبّان

(٣) صحيح ابن حبّان ٥٦٤٦، وليبيان فقه هذا النهي أرجو مراجعة:  
شرح العمدة ابن تيمية ١٤٨/٣، المجموع شرح المذهب النووي ٢١/٩،  
معتصر المختصر أبو المحاسن الحنفي ٢٧١/٢،  
الترغيب والترهيب المُنْدِري ٣٨٥/٣

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ابن الأثير ٣/٢١،  
فيض القدير المناوي ٦/٣٣٧، الترغيب والترهيب المُنْدِري ٣/٣٨٥

رَبِّكَ ذُلْلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْلِفٌ الْوَنْدُ، فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ<sup>c</sup>  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْهَ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ النحل

وأَمّا الْمَهْدَد فِلَهُ شَرْفُ صَحْبَةِ سَلِيمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالغَيْرَةُ عَلَى دِينِ اللَّهِ، فَنَزَّلَ  
فِيهِ ﴿وَنَقَدَ الظَّيْرَ فَقَالَ مَا لِكَ لَا أَرَى الْمَهْدَهُ أَمْ كَانَ مِنَ  
الْفَاكِيرِ لَا عِذْبَتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا ذَبَحَنَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ  
مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَاطْتُ بِمَا لَمْ تُحْطِ بِهِ، وَجَثْتُكَ مِنْ  
سَيِّمًا بِنَبِيلٍ يَقِينٍ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ  
وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمَسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ  
لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلُهُمْ فَصَدَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَا يَسْجُدُوا  
إِلَهُ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَثَةَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تَخْفُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ  
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾ النَّمَل

وأَمّا الصُّرَدُ فَطَائِرٌ نَصْفُ رِيشِهِ أَبْيَضٌ وَنَصْفُهِ أَسْوَدٌ (١) كَانَ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ابن الأثير ٣ / ٥، ٥ / ٢١، ١٣٦

غريب الحديث ابن الجوزي ١ / ٥٨٤، فيض القدير ٦ / ٣٣٧

لسان العرب ١ / ٣٦٢، ٣٦٣ / ٢٥٠

دليل آدم وإبراهيم ﷺ على موضع الكعبة (١) وقيل: إن العرب كانت تتشاءم به، فنهى النبي ﷺ عن قتله لينخلع عن قلوبهم ذلك الشؤم (٢)

وأوصى النبي ﷺ بالضفادع خيراً، فصح أنه ﷺ "نهى عن قتل الضفدع" (٣) لأن نقيتها تسبيح، قال ﷺ "لا تقتلوا الضفدع فإن نقيتها تسبيح" (٤)

كما أوصى النبي ﷺ بالخفاش خيراً؛ لأنه غار الله لما انتهكت حرمة بيت المقدس، قال ﷺ "ولا تقتلوا الخفash، فإنه لما خرب بيت المقدس، قال: يا رب سلطني على البحر حتى أغرقهم" (٥)

(١) تفسير القرطبي ٧/٢٧٠، ١٦٦/١٣، ١٧٢، فيض القدير ٤/٢١٥

(٢) فيض القدير المُنْاوِي ٦/٣٣٧

(٣) سنن النسائي ٤٨٦٧، سنن أبي داود ٥٢٦٩، المسند أحمد ١٥٧٦٨

وصحح الهيثمي إسناده في (جمع الروايد ومنبع الفوائد ٢/٥٢)

(٤) السنن الكبرى البيهقي ١٩١٦٦، المعجم الأوسط الطبراني ٣٧١٦

وصحح الهيثمي إسناده في (جمع الروايد ٢/٥٢)، وصححه الألباني في

(صحيح الجامع الصغير وزيادته ٧٣٩٠)

(٥) السنن الكبرى البيهقي ١٩١٦٦ وقال "موقوف صحيح، وذكر ابن حجر في

(التلخيص الحبير في تحرير أحاديث الرافعي الكبير ٢٤٥٢) أن حكمه الرفع.

وإذا وجدنا العظم والرَّوث، فلا يجوز الاستنجاء بهما، قال ﷺ "فلا تستنجوا بها، فإنها زاد إخوانكم من الجن" (١)

ونهانا ﷺ عن سب الحُمَّى، فقال لأم السائب "لا تُسْبِي الْحُمَّى، فإنها تُذَهِّب خطايابني آدم كما يُذَهِّب الكِير خَبَثَ الْحَدِيد" (٢)

وعلَّمنا ﷺ كيف نبادر الملائكة حباً بحب؛ لأنهم أهل شفقة بنا، قال تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الشورى ٥ (٣) و "تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب" (٤) و تشاركتنا الطاعة، قال ﷺ "لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة" (٥) كما تقرب لسماع الذكر، فقد ثبت أن النبي ﷺ قال لأُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرَ لما بات يقرأ القرآن "تلك الملائكة دَنَتْ لصوتِكِ، ولو قرأتَ لأصْبَحْت ينظر الناس إليها، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ" (٦) و تشاركتنا الصفواف القتالية،

(١) صحيح مسلم ٤٥٠ (٢) صحيح مسلم ٢٥٧٥ و ٦٥٢٢

(٣) وانظر: آل عمران ١٨، طه ١١٦، غافر ٧

(٤) صحيح ابن خُرَيْمَة ١٧ (٥) صحيح مسلم ٢٧٠٠ و ٦٨٠٥

(٦) صحيح البخاري ٤٧٣٠

قال تعالى ﴿بَلَّا إِنْ تَصِيرُوا وَتَتَقْوَى وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرَهُمْ هَذَا يُمْدِدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾<sup>١</sup> آل عمران ١٢٥، كما تشاركتنا الصفواف المعنية، ففي شأن كفار مكة قال النبي ﷺ لشاعره لحسان بن ثابت "أُهْجُّهُمْ وجبريل معك" (١) بل لا يتم إيماناً إلا بالإيمان بهم، قال تعالى ﴿إِمَّا مِنَ الرَّسُولِ إِنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ وَإِمَّا مُؤْمِنَوْنَ كُلُّهُمْ إِمَّا بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُلُّهُمْ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْنَكَ الْمَصِيرُ﴾<sup>٢</sup> البقرة ٢٨٥

ولذلك أمرنا النبي ﷺ بالتأدب مع الملائكة، فقال "منْ أكل البصل والثوم والكراث، فلا يقربنَّ مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتآذى منه بنو آدم" (٣) ثم جعل ﷺ التشبيه بالملائكة من باب الفضائل، فكان يصفُ الصحابة للصلة كصفوف الملائكة، ويقول "فُضَّلْنَا على الناس بثلاث: جعلت صفوتنا كصفوف الملائكة ... " (٤)

(١) صحيح البخاري ٤١ و٣٨٩٧ و٣٠٤١

(٢) وانظر: البقرة ٩٨

(٣) صحيح مسلم ٥٦٤

(٤) صحيح مسلم ٥٢٢

ثم تمت الكلمة ربك فنهى عن طغيان (أنا) التي قالها إبليس في قياسه الفاسد عن آدم ﷺ، فقال تعالى حكايةً عن إبليس ﷺ **فَالْأَنْجَى خَيْرٌ مِّنْهُ**  
**خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ص ٧٦، ونهى عن طغيان (لي) التي قالها فرعون تكبراً، فقال تعالى حكايةً عنه **وَنَادَى فِرْعَوْنٌ فِي قَوْمِهِ**  
**قَالَ يَقُولُ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا**  
**تُبْصِرُونَ** الزخرف ٥١، ونهى عن طغيان (عندى) التي قالها قارون استغناً، فقال تعالى حكايةً عنه **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ**  
**يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً**  
**وَأَكْثَرُهُمْ جَمِيعًا لَا يُشَكِّلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ** القصص ١(٧٨)

فكانت حضارة الإسلام معياراً توزن به الحياة؛ لأنه إذا كانت الحضارة توازنـاً فإن التوازن حضارة، وهو ما يميز عموم الإسلام وشموله ووسطيته وكماله وفرادته وخلوده.

فمن جهة العلم نتوزن في وعي رشيد ووعي سديد على ثلاثة:  
 الرواية بالنقل، والدرائية بالفهم، والرعاية بالعمل؛ فلا نتعرض لما نجهل

---

(١) زاد المعاد ابن القيم ٤٦٨ / ٢ وبعدها

حتى نعلمه، امثالاً لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ  
السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا﴾ الإسراء .٣٦

ومن جهة العمل نتوزن، فلا نتعرض لما لا نُطيق، امثالاً لقوله  
تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيهِمْ كُلُّ أَنْثَىٰ كُلُّ أَنْثَىٰ كُلُّ أَنْثَىٰ﴾ البقرة .١٩٥

ومن جهة المسؤولية نتوزن، فلا نتكلّف غير ما نقدر، امثالاً لقوله  
تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا  
أَكْتَسَبَتْ﴾ البقرة .٢٨٦

ومن جهة الحرب نتوزن فلا نطلبها، وإنما نوظفها للجهاد بشرطه،  
التزاماً بقوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ  
الَّذِينَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ فِإِنْ أَنْتَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾  
الأنفال ٣٩، فنسلك مناهج الحِدَال بالبرهان قبل السُّنَان، فإن مالوا إلى  
السلم ملنا، قال تعالى ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلِيمِ فَاجْنِحْ كُلُّ هَا وَتَوَكَّلْ  
عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الأنفال .٦١

ومن جهة السعي نتوزن، فنتناول الأسباب على وجهها، ونرضى

بقضاء الله وقدره على وجهه؛ لأن علينا السعي وليس علينا حيازة النتائج، وهذا هو التوكل المقصود من قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ﴾<sup>c</sup> إِنَّ اللَّهَ بَنِلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا

الطلاق - ٣ - ٢، وتلك هي وسطية الإسلام الجامعة.

فمنْ رغب عن ذلك فقد حجب الإسلام عن نفسه وغيره، وإن من ينظر في حال إسلام اليوم يجده في مواجهة مع أهله، محجوباً عن الناس بأهله، ومحجوباً عن أهله بأهله.

وهكذا كان حال اليهود، فنزل فيهم قوله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتَلُوا أَنَّ تَمَسَّكُنَا أَنَّا سَارُ إِلَّا آتَيْنَا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾<sup>b</sup>

آل عمران ٢٤، فكان عاقبتهم وقوع العذاب بعنته، قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَهُورُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخْذَنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾<sup>a</sup> الأعراف ١٦٥.

وهذا هو ذات الوعيد النازل في كل أمة تحيد عن الحق، قال تعالى

﴿ظَاهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتِ الْيَدِيَّ النَّاسِ لِيُذْيِقُهُمْ بَعْضَ﴾

الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . ٤١ الروم

فكان من مبالغ رحمة الله أن الإذابة تكون ببعض الإفساد، لا بكله  
 وإلا هلكوا جميعاً، قال تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى ﴾ النحل ٦١، وقال تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِ كَا مِنْ دَآبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى ﴾ فاطر ٤٥ (١)

فإن أدرك القوم أن الوحي لا يقوم به القعدة، وإنما يلزمهم أهل الهمة،  
 وأن الله لا يغير الكروب إلا بتغيير الذنوب فأصلحوا أنفسهم فقد فقهوا  
 قول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُولُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا يَأْنُفُسِيهِمْ ﴾ الرعد ١١

وأدركوا أن التغيير لا يكون إلا بعد التغيير، وأنه بظلم من الناس  
 صُبِّت عليهم المظالم، وهكذا يتقمم الله من ظالم بظلم، وما من ظالم إلا

- (١) وانظر: الروم ٤٢-٤١، تفسير الثوري ١/٢٦٨،  
 تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ١/٢٢٦ و٣٦٨ و٣٩٠،  
 تفسير الطبرى ١٤/١٤، ١٢٦، ١٤٧/٢٢، ٣٢، ٣٠/٢٥،  
 تفسير القرطبي ١٠/١١٩-١٢٠، ١٤، ٣٦١/١٦، ٣٠/٣٠ وبعدها،  
 تفسير ابن كثير ١/٥٢٩، ٥٠٢/٢، ٩٢/٣، ٥٧٤، ٤٩٢ و٥٦٣، ٣٩٩

سَيْلَى يَوْمًا بِأَظْلَمِ، قَالَ تَعَالَى ﷺ وَكَذَلِكَ نُؤْلِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا  
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﷺ الأنعام (١) (١٢٩)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) وأرجو مراجعة: مجلة البيان عدد [١٤٩] ص ٢٦ وبعدها بتصرف

د. عبد الحميد محمود غانم

Agh\_١٩٥٢@yahoo.com

Ghanem1952@gmail.com

---